جريدة الرأي (الأردن) 16 يناير 2009

الاستشراق الألماني وتسييس الإسلام

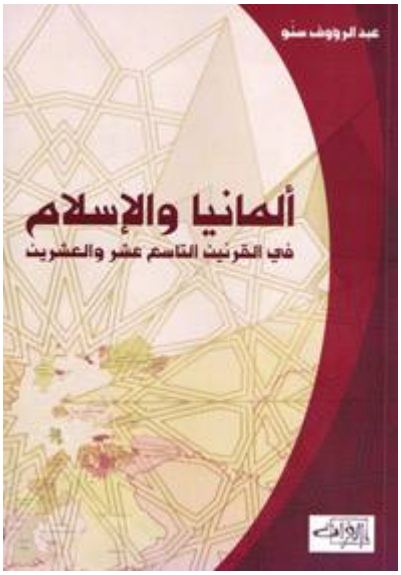

محمد م. الأرناؤوط - مع كتاب د.رضوان السيد الصراع على الإسلام (بيروت، 2003)، الذي كشف فيه عن بعض جوانب هذا الصراع الاقليمي/الدولي على الإسلام بعد الحرب العالمية الأولى، يأتي الآن كتاب د.عبد الرؤوف سنو ليكشف أكثر عن جذور هذا الصراع على الإسلام بين القوى الأوروبية المتنافسة على النفوذ في العالم، وبالتحديد بين ألمانيا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

عُرف سنو بأبحاثه الجادة في العلاقات الألمانية العربية بالاستناد إلى الأرشيف الألماني، الذي قلّ من يعمل فيه من الباحثين العرب، ولذلك تأتي أبحاثه دائماً بجديد في هذا المجال. وقد توج أخيراً أعماله بكتاب ألمانيا والإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين الذي صدر مؤخراً في بيروت (دار الفرات، 2008)، والذي يمكن القول إنه يشكل إنجازاً في الدراسات الأكاديمية حول هذا الموضوع.

يتألف الكتاب الضخم (611 صفحة من القطع الكبير) من أربعة أقسام، وربما كان من الأفضل لو اقتصر عدد الأقسام على الثلاثة الأولى، لأن القسم الرابع (ألمانيا والإسلام بعد الحرب العالمية الثانية) كان يمكن نشره بشكل مستقل عن العلاقات الألمانية العربية المعاصرة، حيث يتضمن دراسة عن أزمة العلاقات بين القاهرة وبون في العام 1967 ، وأخرى عن مبدأ هالشتاين: الصراع بين الدولتين الألمانيتين في لبنان 1953- 1972 وغيرها.

باستثناء ذلك يمكن القول إن معظم الكتاب (420 صفحة) يحمل لنا دراسة نقدية متعددة الجوانب لموضوع ألمانيا والإسلام تصل إلى تفكيك بعض الأساطير التي استقرت لعقود طويلة بيننا. ومن ذلك ما ساد من رأي بأن ألمانيا تميزت عن غيرها بصداقة المسلمين، وأن الاستشراق الألماني كان أكاديميا أكثر ولم يخدم كغيره نظام بلاده في سعيه للتوسع في العالم الإسلامي، وأن ألمانيا كانت الدولة الأوروبية الوحيدة التي لم تستعمر المسلمين.. إلخ. بعبارة أخرى يقدم سنو في كتابه الأخير أرضية معرفية جيدة عن تطور الاهتمام الألماني الجديد بالإسلام، وتوظيفه لأجل مصالح الدولة الألمانية العليا وصولاً إلى الحرب العالمية الأولى التي وصل فيها الصراع الأوربي على الإسلام إلى ذروته.

هكذا يتتبع سنو الاهتمام الألماني بالإسلام والعالم الإسلامي من خلال الاستشراق والتبشير وتنصير اليهود وتوطينهم في فلسطين، ويركز على الانعطاف الذي حصل نتيجة للثورة الصناعية والوحدة الألمانية التي أبرزت مصالح جديدة لألمانيا. ورغم الضغوط التي كان يمارسها أصحاب هذه المصالح على المستشار بسمارك، إلا أنه بقي يقاوم القيام باختراق الشرق في (الدولة العثمانية) خشية إثارة الدول الأوربية الأخرى (روسيا وبريطانيا وفرنسا). ومن هنا فقد رفض بسمارك في المقابل طلب السلطان عبد الحميد الثاني في العام 1883 لتشكيل حلف من ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية لمواجهة الحلف الروسي الفرنسي.

لكن تحفّظ بسماك انهار مع وصول الإمبراطور وليم الثاني إلى الحكم في العام 1888 الذي قام بانعطاف كبير في السياسة الخارجية الألمانية انسجاماً مع هدفة الكبير: إخراج ألمانيا من النسق الأوربي إلى النسق العالمي . وهكذا برز مع هذا الإمبراطور الاندفاع نحو الشرق الذي تمثل في تدفق الرساميل والقروض الألمانية إلى الدولة العثمانية، ومد السكك الحديدية نحو بغداد والبصرة لتصل إلى الخليج الذي يعني مواجهة بريطانيا في أهم منطقة.

في هذا السياق، أقدم الإمبراطور وليم الثاني على أمر غير مسبوق في العلاقات بين الشرق والغرب، فقام بزيارة أستنبول وبلاد الشام (القدس ودمشق.. إلخ) في العامين 1889 و1898، وأطلق خلال زيارته تصريحات عكست هذه التوجهات الألمانية الجديدة وتركت تأثيرات بعيدة المدى في المنطقة.

لقد كان حجر الاساس في هذه الاندفاعة اكتشاف الأهمية الإستراتيجية والعسكرية والاقتصادية لآسيا الصغرى، حيث كان يمكن لألمانيا عبر الطريق البرية الوصول بسهولة إلى آسيا الصغرى ومنها إلى بلاد الشام والعراق، حيث يمكن لها بسهولة مضايقة مصالح بريطانيا في مصر والهند.

بناء على هذا الاكتشاف، غيرت ألمانيا سياستها باتجاه الحفاظ على الدولة العثمانية بتقديم المساعدات العسكرية والفنية والاقتصادية والسياسية، وذلك على عكس الدول الأخرى (روسيا

وبريطانيا وفرنسا) التي كانت تريد تقاسم الدولة العثمانية. وفي هذا السياق فقد اكتشفت ألمانيا وسيلة جديدة لتوطيد الدولة العثمانية، هي تعظيمها كدولة خلافة لكل المسلمين في العالم.

فكلما ترسخت فكرة الخلافة زادت طاعة المسلمين للسلطان عبد الحميد الثاني، وكلما ترسخت صلات المسلمين مع السلطان العثماني زادت فرصة ألمانيا (الدولة الصديقة للخليفة والمسلمين) في تحريك مشارع هؤلاء المسلمين ضد أعدائها الذين كانوا يحكمون مناطق يسكن فيها عشرات الملايين من المسلمين. وهكذا تحولت الإستراتيجية الألمانية إلى تقسيم جديد للقوى الأوربية: أصدقاء للإسلام (ألمانيا والنمسا)، وأعداء للإسلام (روسيا وبريطانيا وفرنسا)!.

لم تأت هذه الإستراتيجية الذكية من فراغ، بل بتوصية من بعض المستشرقين الذين عملوا لاحقاً على رأس الدعاية الألمانية لترويج الصورة الجديدة لألمانيا بوصفها دولة صديقة للإسلام والخليفة. على رأس هؤلاء كان المستشرق ماكس فون أوبنهايم (1860- 1946) الذي يوصف بأنه لورنس القيصر و الأب الروحي للجهاد الإسلامي .

كان أوبنهايم وراء الخطاب الشهير الذي ألقاه الإمبراطور الألماني خلال زيارته إلى دمشق في العام 1898 وأعلن فيه عن صداقته لكل المسلمين في العالم وخليفتهم السلطان عبد الحميد، ودشن بذلك سياسة استغلال الإسلام في سبيل مناهضة الدول الأوربية الأخرى. ففي خطابه الذي صيغت كلماته بذكاء، قال الإمبراطور: ليوقن حضرة صاحب الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني والثلاثمائة مليون من المسلمين المرتبطين بمقام خلافته ارتباطاً قوياً والمنتشرين في جميع أرجاء الكرة الأرضية، أن إمبراطور ألمانيا سيبقى محباً لهم إلى الأبد . ويلاحَظ هنا أن الامبراطور يفترض أن كل المسلمين في العالم قد بايعوا السطلان بالخلافة وقبلوا به خليفة، وبناء على ذلك يحظون بصداقة ألمانيا لهم!.

وقد كان لهذه الزيارة والخطبة تأثير كبير في الرأي العام العربي والمسلم، إذ سرت إشاعات وتمنيات بأسلمة الإمبراطور وحتى أسلمة ألمانيا، وأصبح أمل المسلمين آنذاك (1900- 1908) ينعقد على أسلمة ألمانيا واليابان حتى ينهض الإسلام من جديد وينتصر على أعدائه المتربصين به، وهو ما كان يناسب المصالح الألمانية. ومن هنا يمثل الفصل الثالث دعوة ألمانيا واليابان إلى الإسلام: قراءة في الوعي السياسي الإسلامي في القرن العشرين إضافة مهمة، حيث يوضح مدى انتشار هذه الأفكار والتمنيات بفعل الدعاية الألمانية، التي كانت تعمل على توجيه سخط المسلمين إلى أعدائها بوصفهم أعداء الإسلام .

مع تصاعد الصراع على المصالح بين ألمانيا وروسيا وبريطانيا وفرنسا، كانت ألمانيا تعوّل كثيراً على ترويج فكرة الخلافة والجامعة الإسلامية بين المسلمين لدفع السلطان إلى إعلان الجهاد ضد أعداء الإسلام (روسيا وبريطانيا وفرنسا). ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى وإعلان السلطان ل الجهاد ضد أعداء الإسلام أسست ألمانيا وكالة أخبار الشرق وعينت على رأسها المستشرق أوبنهايم.

وكان هدف هذه الوكالة بالضبط إثارة الشعوب الإسلامية في ممتلكات فرنسا وبريطانيا والقيام بالدعاية والدعاية المضادة حول سير الحرب .

لكن، في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا تراهن على تأجيج المشاعر في العالم الإسلامي ضد أعداء الإسلام ، كانت بريطانيا تعمل على تأجيج المشاعر العربية ضد الدولة العثمانية. ويبدو، كما يقول سنو في نهاية كتابه، أن مشاعر العروبة المؤججة من قبل بريطانيا تفوقت في تلك المرحلة على الجامعة الإسلامية التي كانت تعمل ألمانيا على تعميقها بين العرب والمسلمين . وهكذا جاء فشل الحملة على السويس في العام 1915 والثورة العربية في العام 1916، لتؤشر على انعطافة في الاتجاه المعاكس، وتنهي الحرب لصالح بريطانيا وفرنسا على حساب ألمانيا والدولة العثمانية.

كتاب سنو يمثل مرجعاً مهماً لفهم الاندفاع الجديد لألمانيا نحو الشرق والإسلام ودور الاستشراق في ذلك، ويفكك في هذا الإطار بعض الأساطير عن ألمانيا، كما يقدم نموذجاً رائداً في تسييس الإسلام من الخارج في إطار الصراع الدولي على المنطقة.